من نجوم الإسلام
(٩)



تأليف

عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣


عبد الرحمن بن عوف
البارُّ الصادقُ والغنيُّ الشاكرُ


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

حَدَّثنا الفتى صادق أمين قال:

كانت خطبة الجمعة اليوم عن الإنفاق في سبيل الله تعالى، فالمجاهدون في أرجاء الأرض، في مسيس الحاجة إلى من يساعدهم، والفقراء والمعوزون بين المسلمين كثرٌ في كلّ مكان، تعرف بعضهم، وتحسب بعضهم الآخر أغنياء من التعفف.

ثم انطلق الخطيب يسوق الشواهد عن إنفاق الأغنياء على الجهاد في سبيل الله، وعن تجهيز جيش العسرة في غزوة تبوك، وعن وقف الأوقاف الإسلامية على طلبة العلم، وفي وجوه الخير الأخرى كالوقف على العاجزين، وللمعسرين، ولطالبي الزواج من الفقراء والمساكين، بل بلغ بهم الجود والكرم وتشبُّعهم بروح المسؤولية تجاه كل ذي روح، أن يقفوا الأوقاف على العجزة من الحيوانات، يقفون لها المروج، ويبنون لها الاصطبلات، ويوظفون لها من يسهر عليها، فيقدم لها الطعام والشراب، إلى أن تنفق (أي تموت) تلك الحيوانات العاجزة أو المريضة..

وضرب لنا الأمثال من أولئك الذين تسامت أرواحهم، وزكت

قلوبهم، وتطهرت أيديهم، وتسامقت عواطفهم، فذكر لنا ذا النورين عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وأبا حنيفة النعمان، وعبد الله بن المبارك، وغيرهم من الأغنياء أصحاب الأريحية والكرم، رضي الله عنهم وأرضاهم.

وكان الخطيب قد تحدّث أكثر ما تحدث، عن إنفاق الصحابيّ الجليل: عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وكان فيما ذكره عنه من وجوه الإنفاق، أنه قدمتْ له سبع مئة راحلة (دابّة) تحمل البُرَّ والدقيق والطعام، فلما دخلت المدينة المنورة سُمِعَ لأهل المدينة رَجَّةٌ، فبلغ ذلك أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقالت:

ــ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«عبد الرحمن بن عوف لا يدخل الجنة إلاَّ حبواً».

فلما بلغ عبدَ الرحمن مقالُ أمّ المؤمنين، جاءها مسرعاً، وقال لها:

ــ يا أمَّهْ! إني أشهدُك أنها بأحمالها وأحلاسها في سبيل الله!.

وشرح لنا الخطيب معنى أحلاسها فقال:

الأحلاس: جمع حِلْس، وهو الكساء الذي يلي ظهر الجمل تحت القتب.

والقَتْبُ: جمعه أقتاب. والقتب هو الرحل الصغير على قدر السنام.

وقال الخطيب الشيخ:

وفي رواية أخرى، قال عبد الرحمن بن عوف، بعدما سمع مقالة السيدة عائشة رضي الله عنها: إن استطعتُ لأدخلنَّها قائماً.. فجعلها بأقتابها وأحمالها في سبيل الله تعالى.

فهتف مُصلٍّ من هنا: الله أكبر.

ومصلٍّ من هناك: تكبير..

فارتجّ المسجد بصوت المكبّرين، كما ارتجت شوارع المدينة المنوّرة تحت سنابكِ الخيول، وأخفاف الجمال التي جاءت تحمل تجارة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأرضاه.

وقال خطيب الجمعة:

وكان رسول الله ﷺ قال له:

«يا ابن عوف إنك من الأغنياء، وإنك لن تدخل الجنة إلاَّ زحفاً، فأقرض الله عزَّ وجلَّ يطلق قدميك».

قال عبد الرحمن بن عوف:

ـ ما الذي أقرض الله؟

قال رسول الله ﷺ:

تتبرّأ مما أمسيتَ فيه.

قال عبد الرحمن بن عوف:

ـ من كلِّه أجمع يا رسول الله؟

قال: نعم.

فخرج عبد الرحمن بن عوف وهو يهمّ بذلك، فأتى جبريلُ فقال لرسول الله ﷺ:

ـ مُرِ ابنَ عوف، فلْيُضِفِ الضيف، ولْيُطْعِمِ المسكين، ولْيُعْطِ السائل، فإذا فعل ذلك، كان كفّارةً لما هو فيه.

وفي رواية أخرى:

«فليضفِ الضيف، وليعطِ في النائبة (يعني المصيبة) وليطعم المسكين.

وقال خطيب الجمعة: قال الإمام الزُّهري:

ـ تصدّق ابن عوف على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله، أربعة آلاف، ثم تصدّق بأربعين ألفَ دينار، وحمل على خمس مئة فرس في سبيل الله، ثم حمل على ألف وخمس مئة راحلة في سبيل الله، وكان عامّة ماله من التجارة.

فعاد المسجد تتجاوب جنباته بالتكبير والتهليل من جانب المصلِّين الذين اعتادوا البخل والإمساك من عامّة من يعرفون من أغنياء زمانهم.

وقال خطيب الجمعة، وكان خطيباً بليغاً:

ـ اسمعوا هذه الحادثة أيها المسلمون.

فاشرأبّتْ أعناق المصلّين، وتعلّقت أبصارهم وآذانهم بما سيقوله.. قال:

ـ جاء عبدُ الرحمن بن عوف النبيَّ ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقةً، وقال له:

ـ كان عندي ثمانية آلاف، فأمسكتُ أربعة آلاف لنفسي وعيالي، وأربعة آلافٍ أقرضُها ربي عزَّ وجلَّ.

فنزلت الآية الكريمة: ﴿الذين يُنْفِقُون أموالَهم في سبيل الله، ثم لا يُتْبِعُون ما أنفقوا مَنّاً ولا أذىً، لهم أَجْرُهم عند ربِّهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ صدق الله العظيم. فقال أناس من المنافقين:

ـ إنّ عبد الرحمن لعظيمُ الرياء.

لماذا؟ لأنه تصدّق بشطر ماله، بنصف ماله.. هل تسمعون؟ هل تَعُونَ ما أقوله لكم؟ زعموا أنه مُرَاءٍ عظيم، لأنه تصدّق بنصف ماله، لأنّهم ما اعتادوا على مثل هذا النمط الفريد من الرجال المُنْفقين في سبيل الله، فأنزلَ اللَّهُ السميعُ البصيرُ في أولئك المنافقين الذين اتّهموا ابنَ عوفٍ بالرياء:

﴿الذين يلمزون المطَّوِّعين من المؤمنين في الصَّدَقات، والذين لا يجدون إلاَّ جُهْدَهم فيَسْخَرُون منهم، سَخِرَ اللَّهُ منهم، ولهم عذابٌ أليم﴾ صدق الله العظيم.

فعادت جنباتُ المسجد تتجاوبُ بالتهليل والتكبير، الأمر الذي شجَّعَ خطيبَنا المُفَوَّهَ على متابعة الحديث عن إنفاق عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فانطلق يقول:

ـ باع عبد الرحمن بن عوف أرضاً له من عثمان بن عفان

بأربعين ألفَ دينار، فقسمه وفرّقه ووزّعه على فقراء بني زُهرة، وعلى المهاجرين، وعلى أمّهات المؤمنين، فأُتِيَتْ عائشة رضي الله عنها بنصيبها، فقالت:

ــ مَنْ أَرسلَ بهذا؟

قيل لها: عبدُ الرحمن بن عوف.

قالت: أمَا إنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

ــ «لا يحنو عليكنّ بعدي إلاَّ الصابرون».

ثم قالت: «سقى اللَّهُ ابنَ عوفٍ من سلسبيل الجنة».

وأوصىٰ عبد الرحمن بحديقةٍ لأمّهات المؤمنين، بيعت بأربع مئة ألف.

فعادت جنبات المسجد إلى الارتجاج بتهليل المصلّين وتكبيرهم، إعجاباً بما قدّمه عبد الرحمن بن عوف لأمّهات المؤمنين، اللواتي لم يشبعن في بيت رسول الله وفي حياته من خبز الشعير، وكانت تمرّ بهنّ الأيام والليالي، ولا يوقد في بيوتهنّ نارٌ لطعام، رضي الله عنهنّ من صابرات، وعن زوجهنَّ رسول الله وأستاذ الحياة، عليه صلوات الله وسلامه، فقد كان الصابر المحتسب في هذه الحياة، في انتظار ما يدّخره له مولاه في الآخرة من نعيم.

وقال الخطيب:

ــ كان أهل المدينة المنوّرة عيالاً على عبد الرحمن بن عوف، ثُلُثٌ يقرضهم مالَه، وثُلُثٌ يقضي دينَهم، ويَصِلُ ثُلُثاً..

وعن عُرْوَةَ بن الزبير رضي الله عنهما قال:

ـ «أوصى عبد الرحمن بن عوف بخمسين ألفَ دينار في سبيل الله تعالى».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

مرض عبد الرحمن بن عوف، فأوصى بثلث ماله، فصحَّ، فتصدّق بذلك بيد نفسه ثم قال عبد الرحمن:

ـ يا أصحاب رسول الله ﷺ. كلُّ مَنْ كان من أهل بدر له عليّ أربعُ مئةِ دينار. فقام عثمانُ وذهب مع الناس. فقيل له (يعني لعثمان بن عفان رضي الله عنه): يا أبا عمر، ألستَ غنياً؟

قال: بلى، ولكنّ هذه صلةٌ من عبد الرحمن، وليست صدقة، وهي من مالٍ حلال.

فتصدّق عبد الرحمن في ذلك اليوم، بمئة وخمسين ألفَ دينار، فلمّا جَنَّ عليه الليل، جلس في بيته، وكتب جريدة، أي لائحة أو قائمة بتفريق جميع ماله على المهاجرين والأنصار، حتى كتب أنَّ قميصه الذي على بدنه لفلان، وعمامته لفلان، ولم يترك شيئاً من ماله إلاَّ كتبه للفقراء.

فلمّا صلّى الصبح خلف رسول الله ﷺ، هبط جبريل على رسول الله ﷺ وقال له:

ـ «يا محمد!. إنّ الله يقول لك: اقرأ مني على عبد الرحمن السلام، واقبلْ منه الجريدة، ثم رُدَّها عليه، وقل له: قد قَبِلَ اللَّهُ

صدقتَك، وهو وكيلُ الله ووكيلُ رسوله، يصنع في ماله ما شاء، ولْيَتَصَرَّفْ فيه كما كان يتصرف قبلُ، ولا حساب عليه، وبشّره بالجنّة».

علت الهتافات والتكبير والتهليل في المسجد، فسكت الخطيب لحظات، ريثما هدأ المسلمون، ثم تابع يقول:

ـ اسمعوا ما قاله عبد الرحمن بن عوف عن هجرته إلى المدينة المنوّرة، تاركاً كلَّ ماله في مكة المكرمة، هرباً بدينه الذي هو أغلى شيء في هذه الحياة..

قال عبد الرحمن بن عوف:

ـ لمّا قَدِمْنا المدينة، آخى رسولُ الله ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد:

ـ إني أكثرُ الأنصار مالاً، فأقسمُ لك نصفَ مالي، وانظُرْ أيَّ زوجتيَّ هَويْتَ، نزلْتُ لك عنها، فإذا حلَّتْ تزوَّجْتَها.

علا التهليل والتكبير من جديد، وبصياح شديد، فنبّههم الخطيب إلى ضرورة الهدوء، واحترام المسجد، وذكر لهم حديث رسول الله ﷺ: «إذا قلتَ لصاحبك والإمام يخطب: اسكتْ، فقد لغوتَ» وعلّق قائلاً: ومن لغا فلا جمعة له.. فهدأ المسلمون، فتابع الخطيب يقول:

ـ فقال عبد الرحمن بن عوف:

ـ لا حاجة لي في ذلك، وبارك الله في أهلك ومالك.. هل من سوقٍ فيه تجارة؟

قال سعد:

ـ سوقُ قَيْنُقَاع.

فغدا إليه عبد الرحمن، فأتى بأَقِطٍ وسَمْنٍ، ثم تابع الغُدُوَّ، فما لبث أن جاء عبد الرحمن وعليه أثرُ صُفْرة، فقال له رسول الله ﷺ: تزوجت؟

قال: نعم.

قال: ومن؟

قال عبد الرحمن: امرأة من الأنصار.

قال: كم سقت؟ (يعني كم دفعتَ مهراً لها؟).

قال: زنة نواة من ذهب.

فقال له النبيُّ ﷺ: أولِمْ ولو بشاة.

قال الخطيب:

ـ من هذا نعلم، أن عبد الرحمن بن عوف كان فقيراً لا شيء له، فباع واشترى وربح، حتى صار أغنى أغنياء المسلمين، مع أنه كان كثير الإنفاق في سبيل الله، كما ذكرت لكم، وما لم أذكره، وما لم تكتبه كتب التاريخ، قد لا يقلُّ روعة وعظمة عما ذكرته لنا مكتوباً بأحرف من نور.

الحقّ.. أن خطبة الجمعة هذه كانت مؤثّرة جداً، وكانت مثار إعجاب كلِّ مَنْ سمعها أو سمع بها، إلاَّ بعض الأغنياء من التجار،

فقد كان الناس يذكرون بعض ما سمعوه، ليعرّضوا بالأغنياء البخلاء الذين لا يعرفون من الدين إلاَّ ركيعات ينقرونها كنقر الديكة، حتى لا تتسبَّبَ في فوات أيّ ربح عليهم، وكما قال الخطيب في خطبته هذه، لو أنهم علموا أن الركعة ستكلفهم بعض القروش، لتركوها والعياذ بالله تعالى.

كنتُ أنا العبد الفقير إلى الله تعالى، صادق بن الشيخ أمين، ممن امتلأ إعجاباً بالخطيب لفصاحته وشدّة تأثيره بالناس، وبهذه الشخصية الفذّة، شخصية الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف، وكانت أختي صادقة شديدة الإعجاب بالصحابيّ العظيم، وقالت لي ونحن عائدان من صلاة الجمعة:

ــ كانت النساء المصلّيات يجهشنَ في البكاء طوال الخطبة.

وفي البيت، وأثناء الغداء، كانت خطبة الجمعة محور حديثنا، فما كان من أمي إلاَّ أن تطلب مني تشغيل المسجّل الصغير الذي اصطحبه معي، لتسجيل بعض الخطب والأحاديث والكلمات ذوات المعنى، فامتثلتُ لأمرها، ولم تكد تسمع بعضها حتى شَرِقَتْ بدمعها، وتوقفت عن الطعام، فامتدت يد والدي وأغلقت المسجِّل، ومع ذلك لم تستطع والدتي الحبيبة متابعة غدائها، فقد نهضت عن المائدة، وذهبت وغسلت وجهها وعينيها، ثم عادت تقول في تأثر:

ــ الصحابة مسلمون، ونحن مسلمون؟

هل نحن مسلمون حقاً؟

عبد الرحمن بن عوف تاجر مسلم، وفلان من التجار تاجر مسلم؟

فقال والدي:

ـ دعينا يا أمّ صادق من ذكر الآخرين.. لا يجوز التفريط بحسناتنا.

فقالت صادقة:

ـ أذكر أنني قرأت كلمة رائعة للإمام المجاهد عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى، وذلك عندما مرَّ على قوم يغتابون الناس، فقال لهم:

ـ ويحكم.. من كان مغتاباً فليغْتَبْ والديه، فهما أحقُّ بحسناته من الآخرين.

فابتسمتْ أمُّ صادق في سعادة وقالت:

ـ بارك اللّهُ فيكِ يا صادقة.. سأحتفظ بحسناتي لنفسي.. لن أغتاب أحداً بعد اليوم إن شاء الله، وإذا زَلَّ لساني، فأرجوكم أن تنبّهوني.

فقال لها أبـي في رضا:

ـ وبارك فيك يا أمَّ صادق وصادقة، فأنتِ أصيلة بنت أصلاء.

وقالت أمّي والسعادة تطفح على وجهها:

ـ وأنت يا شيخ أمين، أصيل وابن أصلاء، و..

فقاطعتها صادقة بقولها:

ـ وصادق وصادقة أصيلان من أصيلين من أصلاء والحمد لله.

وضحكنا جيمعاً، ثم نهضنا عن المائدة..

وبعد صلاة العصر في مسجد الحي، استلقيت على سريري، وأنا أفكّر بهذا الصحابيّ الجليل الذي كان ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، وإذا أنا ألمح شخصاً يدخل عليّ غرفتي، تتبعه أختي صادقة..

كان الرجل أبيض البشرة، واسع العينين، ذا أهداب طويلة، وأنفٍ أقنى (أي محدودب) وله نابان طويلان، وربما أدمى نابُه شفتَه، له شعر أجعد له جُمّةٌ أسفلَ مِنْ أذنيه، ضخم الكفّين، غليظ الأصابع، عريض الكتفين، أهتم (أي أنّ أسنانه الأمامية مكسورة ومنزوعة من أصلها)، وكأنه أعسر، فقد كان يحمل قلماً بيسراه، كأنه يستعدّ لكتابة شيء ما، وكان طويلاً، حسن الوجه، رقيق البشرة، وبشرته، كما قلتُ، بيضاء مُشْرَبَة بحمرة، وقد وَخَطَ الشيب شعر رأسه ولحيته، فلم يغيّره ولم يصبغه بحنّاء أو سواها، وكان ذا عنق طويل، وقد لفت نظري أنه يعرج..

نهضتُ مسلّماً:

ـ أهلاً وسهلاً بك يا عمّ.. تفضّلْ بالجلوس.

فابتسم وهو يقول:

ـ أولاً.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فرددت التحية بأحسنَ منها:

ـ وعليكم السلام رحمة الله وبركاته ورضوانه.. تفضّلْ واجلسْ أيها الرجل الوقور.

قالت صادقة:

ـ إنّ عمي هذا، هو.. عبد الرحمن بن عوف.

فقفزت إليه أعانقه، ثم استلمتُ يديه وقبّلتُهما طويلاً، ونَدَّيْتُهما بدموعي السخينة، فلطالما تندَّتا بالسخاء المنقطع النظير، ولطالما مَسَحَ بهما على جراحات المكروبين من الفقراء والمساكين. ثم قلت له:

ـ أهلاً وسهلاً بالجواد بن الجواد.

وبعد أن استقرّ به المجلس قلت له:

ـ كانت خطبة الجمعة اليوم حول سخائك المذهل يا سيِّدي، ونحن نريد أن نتعرف على الجوانب الأخرى من شخصيّتك المحبَّبة.. عن كلِّ شيء يمتُّ بصلة لك.

قـال:

ـ اسمي عبد الرحمن بن عوف الزهري القرشي. كانوا يدعونني أيام الجاهلية: عبد عمرو، وعبد الكعبة، فغيّر سيِّدي رسول الله ﷺ اسمي، وسمّاني عبد الرحمن.

صادقة: والرسولُ القائدُ..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادقة: يقول: خير الأسماء أو أصدق الأسماء: عبد الله وعبد الرحمن.

صادق: وهل غيّر الرسول القائد..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادق: اسمَ أحدٍ غيرك؟

عبد الرحمن: طبعاً.. فقد كان رسول الله..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

عبد الرحمن: إذا سمع اسماً لم يعجبه، غيّره واستبدل به اسماً آخر.

صادق: عظيم.. رائع.. تصرفٌ عظيم من الرسول القائد..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

عبد الرحمن: وأعتزّ بأن النبي الكريم عليه السلام، سمّاني: الصادق البارّ، وكان يقول ــ بأبي هو وأمّي ــ: «خيارُكم خيارُكم لنسائي» «وعبد الرحمن بن عوف أمين النبيِّ على نسائي».

صادقة: هنيئاً لك يا سيّدي بهذا الشرف الرفيع.

عبد الرحمن: كنيتي: أبو محمد. ومحمد هو أكبر أولادي.

صادقة: كم ولداً لك يا سيِّدي؟

كان لي ثمانية وعشرون ذكراً وثماني بنات.

صادق: ما شاء الله.. مصداقاً وتنفيذاً لأمر الرسول القائد: تناكحوا تناسلوا فإني مُبَاهٍ بكمُ الأممَ يومَ القيامة!.

صادقة: متى وُلدتَ يا سيِّدي الفاضل؟ وأين؟

عبد الرحمن: وُلدتُ في مكة المكرمة، بعد عام الفيل بعشر سنين.

صادق: إذن.. أنت أصغر سناً من الرسول القائد بعشر سنين.

عبد الرحمن: أحسنتَ يا بني.. ولكنْ.. ولكنْ ما اسمك؟

صادقة: اسمه صادق، وأنا صادقة، وأبونا الشيخ أمين، وينادون أمَّنا بأمّ صادق مرة، وأمّ صادقة مرة أخرى.

عبد الرحمن: وهذا الوصف الجميل للنبي الكريم، أعني.. الرسول القائد، من أين جئتما به؟

صادقة: هناك كتاب مهمٌّ اسمُه (الرسول القائد) لكاتب عسكري إسلاميّ، وقد سارت هذه التسمية على ألسنتنا نحن أبناءَ هذا العصر.

صادق: متى أسلمتَ يا سيِّدي؟

عبد الرحمن: كنت أحد الثمانية الذين بادروا إلى الإسلام على يد الصحابيّ العظيم: أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وذلك قبل أن يدخل الرسول القائد إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم، رضي الله عنه.

صادقة: هذا يعني أنك نلتَ شرفَ السبق إلى الإسلام، إلى جانب شرف صحبة الرسول القائد يا سيِّدي!.

وسكتت صادقة لحظة ثم سألت:

صادقة: وأمُّك يا سيِّدي؟

عبد الرحمن: أمّي الشفّاء، حضرتْ مولدَ الرسولِ العظيم.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

عبد الرحمن: وقد أسلمتْ، وهاجرتْ معَ مَنْ هاجر من المسلمين إلى المدينة.

صادقة: وإخوتك؟

عبد الرحمن: أسلم معي أخي وشقيقي الأسود بن عوف، كما أسلم أخواي لأبي: عبد الله بن عوف، وحسن بن عوف الذي عاش ستين سنة في الجاهلية، وستين سنة في الإسلام.

صادق: وعشيرتك؟

عبد الرحمن: أنا من بني زُهرة من قريش، وقبيلة بني زهرة عريقة في حسبها ونسبها، شريفة في أصلها ومَحْتِدِها، ويلتقي نسبي مع نسب النبي الكريم في (كلاب)، وأنا أعترف، بأن أبويَّ نشّآني على الشهامة والنجدة والسخاء والوفاء.

صادقة: فشببْتَ عفيف النفس، سخيّ اليد، سمح الأخلاق، وتطبَّعْتَ، بل كانت مكارمُ الأخلاق والعادات العربية الأصيلة طبعاً أصيلاً فيك، فكنتَ عزوفاً عن المآثم الشائعة في الجاهلية، كعبادة الأصنام والأوثان، وعن الاستهتار.

عبد الرحمن: وكنتُ حريصاً على أن آكل من عمل يدي.

صـادق: ولهذا أبيتَ أن تَرْزَأ أخاك سعـدَ بـنَ الربيـع شيئـاً مـن ماله، وفضَّلْتَ الذهابَ إلى السوق، تبيع وتشتري وتربح من عمل يـدك، حتـى صـرتَ أغنـى أغنيـاء العـرب والمسلميـن، وأسخـاهـم جميعاً.

عبد الرحمن: حاشا نبـيَّ الله، وحاشا الخليفة الصديق، وأمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنهم جميعاً، فقد كان الرسول القائد كالريح المرسلة في سخائه، وجاء الصدّيق بكل ماله في غزوة تبوك، وبذل عثمان ما لم يبذل سواه في تلك الغزوة، وفي سائر أحواله.

صادقة: ثم ماذا يا عمّي؟ هل تعرَّضَ لك طواغيت قريش بالإيذاء؟

عبد الرحمن: لم ينجُ أحدٌ من صحابة رسول الله من إيذاء المشركين، ولهذا أمرنا النبـيُّ الكريم بالهجرة إلى الحبشة، لنفرّ بديننا إلى الله، ولندرس الأرض والناس هناك، فلعلها تكون أرضاً حاضنة للدعوة وللمسلمين، ولكي ندعو الناس إلى هذا الدين.

صادق: هل هاجرت في المرة الأولى يا سيِّدي؟

عبد الرحمن: بل هاجرت الهجرة الأولى، والهجرة الثانية إلى الحبشة.

صادقة: والهجرة الثالثة إلى المدينة المنوّرة.

عبد الرحمن: الهجرة إلى المدينة شملت كلَّ المسلمين، إلاَّ نفراً يسيراً.

صادقة: وكنتَ من العشرة المبشَّرين بالجنة.

عبد الرحمن: الحمد لله.

صادق (لأخته): هل تذكرين لي يا أختاه، أسماء العشرة المبشّرين؟

صادقة: ذكرتهم لك قبل هذه المرة، وأنت ذكرتَهم مرة ثانية.

عبد الرحمن: وأنا أذكرهم مرة ثالثة، حتى لا تنساهم يا صادق.

وأخذ عبد الرحمن بن عوف يعدّهم، وكلّما عدّ واحداً طوى أصبعاً، حتى تمّوا عشرة:

أبو بكر الصديق ـ الفاروق عمر ـ ذو النورين عثمان ـ علي بن أبي طالب ـ سعد بن أبي وقاص ـ سعيد بن زيد ـ طلحة بن عبد الله ـ الزبير بن العوام ـ أبو عبيدة بن الجراح ـ عبد الرحمن بن عوف.

صادق: شكراً لك يا سيِّدي.. وأنت أحد الستة الذين مات رسول الله..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادق: وهو عنهم راضٍ.

عبد الرحمن: تعني أهل الشورى؟

صادقة: نعم.

عبد الرحمن: هم: سعد وسعيد، وطلحة والزبير، وأبو عبيدة وابن عوف.

صادقة: رضي الله عنكم جميعاً وأرضاكم يا عمّي العظيم.

صادق: هل نلت شرف القتال تحت راية الرسول القائد يا سيِّدي؟

عبد الرحمن: شهدتُ المشاهدَ كلَّها مع الرسول القائد ولله الحمد.. شهدتُ بدراً، وأحُداً والخندق، وبيعة الرضوان، وفتح مكة، إلى آخر ما هنالك من غزوات.

صادق: عجيب.. تاجر وتاجرٌ كبير، ويقاتل في سبيل الله؟

عبد الرحمن: وهل هنالك تعارض بين التجارة والجهاد؟

صادق: عندنا، وفي وقتنا الراهن، يوجد تعارض، بل أكثر من تعارض!.

ففتح عبد الرحمن بن عوف عينيه الواسعتين، وسأل في استغراب:

عبد الرحمن: كيف؟

صادق: الواقع يجيب.. فعندنا الأغنياء من التجار وغيرهم، وأبناؤهم، لا يعرفون معنى الجندية أو القتال.. يتهربون من الجندية، ويدفعون الرشى والأموال وألوان الفساد الأخرى التي أخجل من

ذكرها، لكي يتخلصوا من الجندية، حتى صارت جيوشنا وقفاً على أبناء الفقراء والفلاحين البسطاء.

كان سيِّدي عبد الرحمن بن عوف ينصت إليّ في استغراب واندهاش، وكأنه لا يصدّق ما يسمع، فقالت صادقة:

ـ الوضع مختلف يا أخي.

ـ كيف؟

ـ التجار وأبناؤهم في أيامنا، مخلوقون لزمان غير زمان سيِّدي عبد الرحمن وإخوانه.

فقال ابن عوف محتجاً:

ـ ما هذا يا صادقة؟

الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، والإسلام لم يفرّق في فرض الجهاد بين الأغنياء والفقراء، ولا بين زمان وزمان.. كلُّكم مطالَبون بالجهاد في سبيل الله، كما كنا مطالَبين.. أما سمعتم حديث الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك؟

قالت صادقة مهدّئة بابتسامتها العذبة:

ـ بلى.. ونعرف أنّ الصحابيّ الجليل أبا أيوب الأنصاري كان يقاتل وهو ابن سبعين، وهو ابن ثمانين، ودُفن تحت أسوار القسطنطينية كما نعرف أن الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك، كان يقطع ألف ميل، إلى ثغر طَرَسُوس في الأناضول، من أجل الجهاد في سبيل الله تعالى، لم يمنعه علمه الغزير، ولا تجارته الواسعة،

ولا سِنُّه، من أن يجاهد في سبيل الله تعالى. وأمثال هذين الرجلين العظيمين موجودونْ في كل زمان ومكان، ولكنّهم قلة.. قلائل هم التجار الأغنياء الذين تسخو نفوسهم بتجهيز المجاهدين، وأقلُّ منهم، أولئك الذين يجاهدون بأنفسهم، أو يسمحون لأبنائهم بممارسة الجهاد عمليّاً، مَثلُهم كمثل المسؤولين وأبنائهم، فالمسؤولون في الأحزاب والهيآت والحكومات يقاتلون بأبناء غيرهم، ويكونون ضنينين بأنفسهم وأموالهم وأبنائهم وأقربائهم، ثم يقطفون هم ثمار النصر ــ إن كان ثمة نصر ــ وثمار الهزيمة، وغالباً ما تكون أكبر وأضخم من ثمار النصر.

فسأل ابن عوف في اندهاش أيضاً:

ــ وهل للهزيمة ثمار حتى يقطفوها؟

فقالت صادقة:

ــ طبعاً يا عمّي الجليل طبعاً، والمستفيدون من المحن والهزائم، أكثر من المستفيدين من النصر، مع أنني لم أشهد في حياتي القصيرة نصراً، حتى أحكم عليه، فحياتنا كلُّها سلسلة من الهزائم والمخازي والعياذ بالله.

ــ والعياذ بالله.

وأردت تغيير مجرى الحديث، فقد شاهدت الهموم تغطي الوجه السمح للصحابيّ الجليل عبد الرحمن، فقلت له:

ـ ماذا عن جهادك من جديد يا أيُّها الغنيُّ الشاكر، والصادقُ البارُّ، يا سيِّدي عبد الرحمن بن عوف؟

قال ابن عوف والحزن ملء نفسه الكبيرة:

ـ قاتلتُ في بدر كما يقاتل سائر أصحاب رسول الله ﷺ، وكنتُ فيمن ثبت في معركة أحد، أقاتل تحت لواء رسول الله، حتى أصبت بواحد وعشرين جرحاً، كان أحدها في رجلي، فكان سبباً في عرجتي هذه.

فهتفت صادقة:

ـ وبعرجتك هذه ستطأ الجنة هرولةً وركضاً إن شاء الله، بعد أن يطلق الله لك قدميك، بعد ما بذلتَ من أموالك الطائلة في سبيل الله تعالى، فقد ثبتَّ على صفائك ومبادئك في ميدان التجارة، كما ثبتَّ مع الرسول القائد في غزوة أحد، حين انهزم عنه الناس، وبذلتَ من مالك الحلال في وجوه البر والخير والمروءات، كما بذلتَ من دمك الطاهر في غزوة أحد.. نعم يا عمّي الفاضل نعم..

قال عبد الرحمن:

ـ لم تستوقفاني عند غزوة بدر، ولم تعلّقا عليها، مع أنها كانت من المعارك الفاصلة بين الشرك والإيمان، وبين الهداية والضلال، وقد انتصرنا فيها انتصاراً مؤزَّراً، مع أننا لم نخرج لقتال، ولم نكن مستعدّين ولا متأهّبين لخوض معركة فاصلة، ومع أننا كنا نقاتل ثلاثة أضعاف عددنا من المشركين الذين جاؤوا بخيلهم

وخيلائهم، بجبروتهم وطغيانهم، فكسر اللَّهُ شوكتهم، وأدال لنا منهم، فقتلنا كبراءهم وصناديدهم، وأَسَرْنا سبعين منهم، والحمد لله، وقد جعل رسول الله وخلفاؤه للبدريّين ما لم يجعلوا لغيرهم من المجاهدين.

وسكت سيِّدي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه هنيهات، سمعتُه يصعِّد آهةً بعدها وهو يقول:

ـ اسمعوا ما أرويه لكم، لتعرفوا مكانة البدريّين عند الله ورسوله.

كان بيني وبين خالد بن الوليد رضي الله عنه شيء، فأغلظَ لي خالدٌ مرة، فشكوتُه إلى رسول الله ﷺ، فقال له النبيُّ الكريم زاجراً وناهياً ومؤنّباً:

ـ يا خالد!. لا تؤذِ رجلاً من أهل بدر، فلو أنفقتَ مثلَ أُحُدٍ (أي جبل أُحُد) ذهباً لم تدرك عمله.

ـ فماذا كان جواب سيف الله خالد يا سيِّدي؟

ـ قال خالد: يقعون فيَّ، فأردُّ عليهم.

فقال النبيُّ ﷺ:

«لا تؤذوا خالداً، فإنه سيفٌ من سيوف الله، صبَّه الله على الكفار».

فهتفتُ إعجاباً:

ـ الله.. ما أروع هذا الكلام عن سيِّدي خالد بن الوليد.

وقال رسول الله ﷺ:

«دعوا لي أصحابـي، فإنّ أحدكم لو أنفق مثلَ أُحُد (أي مثل جبل أحد كما سبق أن شرحت) أعود إلى كلام رسول الله: دعوا لي أصحابـي، فإنّ أحدكم لو أنفق مثل أحدٍ ذهباً، لم يدرك مُدَّ أجرِهم ولا نَصِيْفَه».

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام في أهل بدر:

«لعلّ الله اطّلعَ على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وَجَبَتْ لكم الجَنّة» أو «فقد غفرتُ لكم».

ــ ما شاء الله.. هينئاً لكم.

ــ كما حضرت بيعة الرضوان تحت الشجرة.

فتَلَتْ صادقة لنفسها في صوت مسموع:

﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلمَ ما في قلوبهم، فأنزلَ السكينةَ عليهم، وأثابَهم فتحاً قريباً ومغانمَ كثيرةً يأخذونها، وكان اللَّهُ عزيزاً حكيماً﴾. صدق الله العظيم.

وقلتُ أنا:

ــ ثم ماذا عن جهادك المبرور يا سيِّدي؟

فأجاب سيِّدي عبد الرحمن بن عوف:

ــ بعثني النبـيُّ ﷺ في سبع مئة مجاهد إلى (دُوْمة الجَنْدَل) في شهر شعبان من السنة السادسة للهجرة، ونَقَضَ النبـيُّ ﷺ عمامتي

بيده، ثم عمَّمني بعمامة أخرى، فأرخىٰ بين كتفيّ منها وقال لي:

«سِرْ باسم الله».

ووصّاني بوصايا، عليه الصلاة والسلام. فقدمتُ (دُوْمَةَ الجندل) فدعوتهم إلى ثلاث، ثم قاتلتُهم، ففتحَ اللَّهُ على يديّ، فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبـي، وكان نصرانياً، وكان رأسَهم، فبعثتُ إلى النبـي ﷺ أخبره بذلك، فكتب النبـي الكريم ﷺ إليّ: أنْ تزوَّجْ تُمَاضِرَ بنتَ الأصبغ، فتزوّجْتُها، فولدت لي ولدي أبا سلمة وغيره.

فعلّقت صادقة:

ــ ما أروعك يا سيِّدي يا رسول الله، وما أحكمك، وما أبعد نظرتك، وما أسمى عواطفك.. القائد المنتصر يتزوج بنت القائد المنهزم، فينسى المنهزم هزيمته بهذا الزواج المكرمة، ويدخل ومَنْ معه من قبيلته في دين الله، دين العزة والكرامة وتكريم بني آدم..

قال عبد الرحمن:

ــ وبعثني رسول الله في سرية، وعقد لي اللواء بيده الشريفة المباركة.

ــ ثم ماذا تذكر لنا من أمرك مع الرسول القائد يا سيِّدي؟

قال ابن عوف:

ــ حياتي مع الرسول القائد هي الحياة، وما بعدها ليست شيئاً في ميزان من ذاق طعم الصحبة مع رسول الله ﷺ.. ولهذا، فسوف أذكر لكم بعض ما كان من شأني معه، بأبـي هو وأمي..

قالت صادقة:

ـ تذكرتُ حديثاً عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

ـ رأيت النبيّ ﷺ في منزل فاطمةَ، والحسنُ والحسين يبكيان جوعاً ويتضوَّران. فقال النبيُّ ﷺ: «مَنْ يصلُنا بشيء؟» فطلع عبد الرحمن بن عوف بصَحْفَةٍ فيها حَيْسٌ (والحَيْسُ: تمرٌ وأقِطٌ وسمنٌ تُخْلَطُ وتعجَنُ وتُسوَّى كالثريد) ورغيفان بينهما إهالة، فقال النبيُّ ﷺ: «كفاكَ اللَّهُ أمرَ دنياك، وأمّا آخرتُك، فأنا لها ضامن».

وأحفظ حديثاً آخر يا عمّي الفاضل.

عن أنس رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لعبد الرحمن بن عوف: «بارك الله في مالك، وخفّفَ عليك حسابَك يوم القيامة».

وقال النبيُّ الكريم داعياً لك:

«سقى اللَّهُ ابنَ عوف من سَلْسَبِيلِ الجنة».

وقال لك يا عمّي الفاضل:

«أنت وليّي في الدنيا والآخرة».

كان سيِّدي عبد الرحمن بن عوف يستمع إلى أختي صادقة، وهو مطرقٌ إلى الأرض حياءً، ثم رفع رأسه وقال:

ـ أرجو أن ننتقل إلى موضوع آخر، أو نعود إلى موضوع الجهاد.

فقالت صادقة:

ـ الحديث عن صحابة الرسول القائد يسمو بالنفوس، ويطهّرها من أدران المـادّيّـة المسيطرة عليها هـذه الأيـام، ويسرّني أن أروي ما ذكره ولدكم إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف فقال:

ـ أغمي على أبـي، حتى ظنّ الذين كانوا عنده، أنه قد فاضت نفسه، فقاموا من عنده، وجلّلوه ـ أي غطّوه ـ ثم أفاق أبـي وهو يكبّر، فكبّر أهل البيت، فقال لهم: هل غُشيَ عليَّ آنفاً؟

قالوا: نعم.

قال عبد الرحمن:

ـ صدقتم.. فقد أتاني ملكان فظّان غليظان فقالا:

ـ انطلقْ نخاصمْك إلى العزيز الأمين.

فانطلقا بـي حتى لقيا ملكاً فسألهما:

ـ أين تذهبان بهذا؟

قالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين.

قال الملك: خلّيا عنه، وارجعا، فإنه من الذين كتب الله لهم السعادة والمغفرة وهم في بطون أمهاتهم، وإنه سيُمتّع به بنوه إلى ما شاء الله.

فعاش عبد الرحمن بن عوف بعد ذلك شهراً.

وعندما أنهت صادقة حديثها قلتُ:

ـ وعدتنا يا سيِّدي بأنك ستذكر لنا بعض ما كان من شأنك مع الرسول القائد عليه السلام.

قال ابن عوف رضي الله عنه:

ـ من الذكريات الأثيرة على نفسي؛ أنّ رسول الله ﷺ أعطى رهطاً كنت معهم، ولم يعطني، فخرجتُ أبكي، فلقيني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال ما يبكيك؟

فذكرتُ له ذلك، وقلت:

أخشى أن يكون مَنَعَه من إعطائي، مَوْجِدَةٌ يجدُها عليَّ.

فأبلغَ عمرُ رسولَ الله ﷺ بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ليس بي سخطٌ عليه، لكنّي وكلْتُه إلى إيمانه».

ـ هنيئاً لكم صدقُكم وصراحتكم يا سيّدي.. ثم ماذا؟

قال عبد الرحمن رضي الله عنه:

ـ كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فذهب النبيُّ ﷺ لقضاء حاجته، فأدركنا وقت الصلاة، فتقدمتُ المجاهدين وصليت بهم، فجاء النبيُّ ﷺ، فأردت أن أتأخر ليؤمّنا، فأومأ إليّ، أنْ مكانك، فتابعتُ صلاتي، وصلّى رسول الله بصلاتي، فلمّا سلّمتُ قام عليه السلام وجاء بالركعة التي سبقناه بها، لأننا كنّا نصلّي الصبح، فلمّا سلّم قال: أصبتم، وأحسنتم. ثم أعلن رسول الله صلاح

ابن عوف العبد الفقير إلى الله وقال ينعىٰ إلينا نفسه «ما قُبض نبـيٌّ حتى يصلّي خلف رجل صالح من أمّته».

فهتفتُ وأنا أتصوّر الرسول القائد يصلّي مقتدياً خلف واحد من المسلمين، ويأبـى أن يتقدم عليه، وأنا أواري حزني لنعي النبـيِّ نفسَه:

ــ الله أكبر.. ما هذا الخلق القرآني يا سيِّدي يا رسول الله؟!.

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه:

ــ إذا كان الشيء بالشيء يُذْكر، فاسمعوا مني هذا الحديث الذي سمعته من رسول الله ﷺ حول سجود السهو.

قال رسول الله ﷺ:

«إذا سها أحدكم في صلاته، حتى لا يدري: أزاد أم نقص، فإن كان شكَّ في الواحدة والثنتين، فلْيجعلْها واحدة، وإذا شَكَّ في الثنتين أو الثلاث، فلْيجعلْها ثنتين، وإذا شكَّ في الثلاث والأربع، فليجعلها ثلاثاً، حتى يكون الوَهْمُ في الزيادة، ثم يسجد سجدتين وهو جالسٌ قبل أن يسلِّم، ثم يسلِّم».

وأروي لكم حديثاً آخر.. فاسمعوه، واحفظوه، واعملوا به..

قال رسول الله ﷺ:

«فرض اللَّهُ عليكم شهر رمضان، وسننتُ لكم قيامه، فمن صامه وقامه إيماناً واحتساباً، خرج من الذنوب كيومَ ولدتْه أمُّه».

فسألتْ صادقة:

ـ لماذا قلتَ يا سيِّدي: كيومَ ولم تقل كيومٍ، لأنّ الكاف حرف جر؟

فاستأذنتُ سيِّدي عبد الرحمن في الجواب، فأذن لي، فقلت:

ـ كلمة (يوم) من الظروف المتصرّفة التي تأتي ظرفاً منصوباً على الظرفيّة الزمانيّة، وتأتي مبتدأ، وفاعلاً، واسماً مجروراً، إلى آخر ما هنالك من إعرابات، وهنا (كيومَ) ننظر إلى الفعل بعده، فإذا كان مُعْرَباً، أعربْنا كلمة يوم، وإذا كان مبنياً، بنينا كلمة يوم، كما هو الحال في الحديث الذي رويتَه قبل قليل يا سيِّدي، (كيوم ولدَتْه) فالفعل (ولدته) ولدَ: فعل ماضٍ مبنيٌّ على الفتح لاتصاله بتاء التأنيث الساكنة، ولذلك جاءت كلمة (كيوم) مبنيّة على الفتح، في محل جرٍ بحرف الجر.

قال عبد الرحمن:

ـ أنا أسمع كلاماً عربياً، ولكنه جديدٌ عليَّ، لا أكاد أفهم منه شيئاً.

قلت:

ـ هذا علم جديد عليكم يا سيّدي، ما أظنكم كنتم تعرفونه فيما مضى.

ثم قلت:

ـ هل من مزيد من الذكريات الحلوة مع الرسول القائد يا سيِّدي؟

فقالت صادقة:

ـ دعوني أفرِغْ ما في جَعْبتي من معلومات قليلة عنك يا عمّي الكريم؛ فأنا أعرف أنك كنت من العلماء القلائل، وأنك كنتَ تُفْتي على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، بما سمعته من رسول الله ﷺ، كحديثك عن سجود السهو، وحديثك عن الصيام مثلاً.

وأعرف أنك كنت لا تُعْرَفُ من بين عبيدك الكثر، لأنك ما كنت تتميز عنهم بلباس أو هيأة أو طعام.

وأعرف أنك أعتقتَ في حياتك ثلاثين ألف عبد.

وأعرف أنك كنتَ أمير الحج سنة ثلاث عشرة.

وأعرف أنك أوصيت بخمسين ألف دينار في سبيل الله، فكان الرجل يُعطىٰ منها ألفَ دينار،

وأعرف أنك أوصيت بألف فرس في سبيل الله.

وأعرف أنك عندما انتقلت إلى الرفيق الأعلى، تركتَ ألف بعير، وثلاثة آلاف شاة، ومئة فرس، وأرضاً بالجُرْف كانت تُزْرَع على عشرين ناضحاً، وأنّ الذهب الذي خلّفته كان يقطّع بالفؤوس، حتى كلّتْ أيدي الرجال من تقطيعه.

وأنّ نساءك قد اقتسمن ثمن ما تركتَ لهنّ، فكان نصيب الواحدة منهن، ثلاث مئة وعشرين ألفاً.

فابتسم عبد الرحمن ابتسامة خفيفة ثم قال:

ــ ذكرتِ كلَّ هذه الأشياء، ونسيتِ شيئاً مهمّاً لا بدَّ أنكِ قرأتِه أو سمعتِه في غزوة بدر يا صادقة.

فهتفتُ أنا في غيرة ظاهرة:

ــ هاتِه يا سيّدي، فحديث غزوة بدر فوق أيِّ حديثٍ عندي.

فازداد إشراق وجه ابن عوف وهو يقول:

ــ نظرتُ يوم بدر عن يميني وشمالي، فإذا أنا بغلامين من الأنصار، حديثة أسنانهما، فتمنّيت أن أكون بين أضلعٍ منهما، فغمزني أحدهما فقال:

أيْ عمّ! هل تعرف أبا جهل؟

قلت: نعم.. فما حاجتُك إليه يا ابن أخي؟

قال: أُخْبِرتُ أنه يسبُّ رسول الله ﷺ. والذي نفسي بيده، لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا.

فتعجبت لذلك.

وغمزني الآخر فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس. فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه فقال:

«أيُّكما قتله؟».

قال كلٌّ واحد منهما: أنا قتلته.

فقال: هل مسحتما سيفيكما؟

قالا: لا.

فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين فقال:

«كلاكما قتله».

والغلامان: معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء.

قالت صادقة:

ـ لفت نظري في هذه الذكرى الرائعة أمران.

الأول: أنْ فتياننا كانوا يقاتلون أعداء الله في سبيل الله.

الثاني: أن الغلامين البطلين كانا شديدي الحبّ والغيرة على رسول الله ﷺ، الأمر الذي جعلهما يفتشان عن الطاغية أبي جهل الذي آذى رسول الله كثيراً، ليقتلاه، ثم قتلاه.

وقلت أنا العبد الفقير إلى المعلومات التاريخية:

ـ وهناك أمرٌ ثالث يتعلق بك يا سيِّدي الكريم.

ـ وما هو؟

ـ هو تواضعُك الجَمُّ الذي جعلك تتمنى أن تكون بين أضلعهما، مع كبير قدرك، وجليل صُحْبتِكَ وجهادك.

فأبدتْ صادقة دهشتها لاستخلاصي هذا الأمر، ثم قالت:

ــ هل بقي من حديث الجهاد شيء يا عمّي الكريم؟

قال عبد الرحمن رضي الله عنه:

ــ لمّا جمعت الروم جموعها، كتب أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه يستنجد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فجمع عمر المهاجرين والأنصار، واستشارهم، ولم يكن أحدٌ أشدَّ جزعاً، ولا أظهر شفقة مني، ولا أكثر مقالة له، فلقد كنت أقول له:

ــ سِرْ بنا يا أمير المؤمنين، فإنك لو قَدِمْتَ الشام، لقد شدَّد اللَّهُ قلوبَ المؤمنين، وأرعب قلوب الكافرين.

وعندما خرج أمير المؤمنين عمر إلى الشام، خرجت معه، فكنتُ مرةً على الميمنة، وكنتُ في نوبة (سَرْغٍ) على الميسرة، فلمّا بلغ سرغاً، أُخبرَ أنّ الوباء قد نزل بالشام، فجمعَ عمرُ أصحابَ رسول الله ﷺ، فاستشارهم، فاختلفوا، فوافقَ رأيُه من رأى الرجوع إلى المدينة.

وكنتُ متغيباً في بعض حاجتي، فلما رجعتُ إليهم قلت لهم:

ــ إنّ عندي من هذا علماً.

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«إذا وقعَ بأرضٍ بلاءٌ، فلا تُقْدِمُوا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم فيها، فلا تخرجوا فراراً منه».

فصاحت صادقة:

ـ الله أكبر.. هذا ما نسمّيه الآن حَجْراً صحيّاً يا عمّي الكريم.. الحَجْر الصحّي كان من رأي رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرناً، ولم يهتدِ إليه الناس إلاَّ في عصرنا الحديث هذا؟.. الله أكبر.. لا ينطق عن الهوى، إنْ هو إلاَّ وَحْيٌ يوحىٰ..

وصحت أنا:

ـ هاتِ من دُرَرِك يا سيِّدي هات، فنحن الظّماء إلى نور إيمانكم، وضياء بصائركم، ونحن في عصر الكهرباء المظلم، والصواريخ المدمّرة.

فأشرق وجه عبد الرحمن بنور ربِّه ثم قال:

ـ كنتُ إذا أتيت مكةَ المكرمة، كرهتُ أن أنزل في منزلي الذي هاجرت منه، لأنه يذكّرني بعادات الجاهلية، ويعيد إلى ذهني صور المعذَّبين من الضعفاء والمستضعفين، واحتقار المحتقرين للعبيد من السادة المترفين.

فقلت:

ـ يا ويلهم ويا ويل أمثالهم من الكبراء والطواغيت المتجبّرين على عباد الله المؤمنين في كلّ زمان ومكان.. إنهم كريهون إلى نفوسنا كما هم كريهون إلى نفسك يا سيِّدي، بل إنهم أكره ذي حياة على هذه الأرض إلينا..، إنسهم وجنّهم، مسلمهم وكافرهم، إنهم أكره إلينا من الوحوش والسباع الضواري في الغابات.. ألا لعنة الله

على الظالمين. . ألا لعنة الله على الطغيان والطواغيت.

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه:

ـ كنتُ وما زلت شديد الخوف من الله سبحانه، لم آمن مَكْرَهُ ساعةً من ليل أو نهار. . كان خوفي منه يؤرِّقني في ليلي فيسلبني نعمة النوم وراحة البال، ويُشقيني في نهاري، فأُهْرَعُ إلى من أتوسّمُ فيه الخير لعله يريحني بكلمة أو دعوة أو نصيحة. . كنت أذهب إلى أمّ المؤمنين: أمّ سَلَمَةَ، رضي الله عنها وأرضاها، فأقول لها:

ـ يا أمَّهْ!. قد خشيت أن تهلكني كثرةُ مالي، فأنا أكثر قريشٍ كلِّهم مالاً.

وكانت تقول لي ناصحة:

ـ يا بنيّ تصدَّقْ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنّ من أصحابي من لا يراني بعد أن أفارقه».

فخرجتُ فلَقِيْتُ عمر، فأخبرتُه بما قالت أمُّ سلمة، فأتاها عمر يشتدُّ ويسرع فقال:

ـ أَنْشُدُكِ اللَّهَ. . أنا منهم؟

قالت: لا. . ولن أبرّىء بعدك أحداً أبداً.

فقلت:

ـ أيُّ ملائكة أطهار أنتم يا سيِّدي؟

أنت وأمير المؤمنين عمر، أعدل أهل الأرض، تخافان من

مكر الله؟ تخافان أن لا تردا على حوض رسول الله؟ فمن نحن؟ وكيف تكون أحوالنا؟

قال عبد الرحمن:

ـ إلَّا أن يتولّانا الله برحمته ورضوانه..

ثم شخص ببصره إلى السماء، ورفع يديه مبتهلاً.. لم أسمع ما كان يدعو به، ولكنَّ شفتيه الراجفتين، وعينيه المترعتين بالدموع، كانت تخبرني بهتافات قلبه ولسانه، رضي الله عنه.

ثم عاد إلينا من رحلة الروح تلك وقال:

ـ كنتُ صائماً مرة، وأتيت بطعام لإفطاري، فنظرت إليه بعينين دامعتين وقلت: قُتل مصعب بن عُمَيْرٍ، وهو خيرٌ مني، فكُفّنَ في بردة، إن غُطّي رأسه، بدت رجلاه، وإن غُطّيتُ رجلاه بدا رأسُه.

وقُتل حمزة وهو خيرٌ مني، فلم يوجد له ما يُكَفَّنُ فيه إلَّا بُرْدُه (أي ثوبُه).

ثم بَسَطَ اللَّهُ لنا من الدنيا ما بسط، وأُعطِينا منها ما أُعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عُجّلت لنا..

وجعلتُ أبكي وأنا عازفٌ عن الطعام.

ـ لله أنتَ يا عمّي الكريم.. أنت في إيمانك وكرمك وسخائك وجهادك وتضحياتك، وتخشى الله هذه الخشية؟

ثم التفتت إليّ صادقة وقالت:

ـ قم بنا نبكِ على أنفسنا يا صادق.. قم.. قم..

وانخرطت في البكاء.. كانت ترتجف من شدّة البكاء، حتى أشفق عليها سيِّدي عبد الرحمن بن عوف، فهدّأ من روعها، وطمأنها إلى رحمة الله تعالى وعفوه، وحذّرني وإياها أن نركن إلى عملٍ ما من أعمالنا، وأن نكون دائمي المراقبة لله تعالى، وقال لنا:

ـ هذه ليست حالي وحال أبـي بكر وعمر وحسب، بل إنها حال رسول الله ﷺ أيضاً.. فقد قال لنا مرة عليه الصلاة والسلام:

«أنا أعلمكم بالله، وأخشاكم لله، وأتقاكم له».

وأردت التخفيف عن صادقة وعن سيّدي ابن عوف فقلت:

ـ كانت خطبة الجمعة اليوم عن كرمك وسخائك يا سيّدي، وقد عرفنا عنك الكثير من الجود والكرم، فهل تقصّ علينا بعض الطُّرَفِ من طرائفك؟

قال عبد الرحمن رضي الله عنه:

ـ كنت فقيراً فأغناني الله من فضله، حتى لو رَفَعْتُ حجراً من مكانه لَوَجَدْتُ تحته مالاً.

وقد سألني بعض أصحابـي فقال:

ـ بمَ أدركتَ في التجارة ما أدركتَ؟

فأجبته:

ـ لأني لم أشتر مَعِيْباً، ولم أُرِدْ ربحاً كثيراً، والله يبارك لمن يشاء.

وسيكـون حديثي عـن الكـرم في سبيـل الله، تحـدُّثاً بنعمـة الله عليّ، ولعلّي أضرب بذلك الأمثالَ للأغنياء والتجار في كلِّ زمان ومكان.

من تلك، أني بعتُ سهمي من بني النضير في (كيدمه) بأربعين ألفَ دينار، فقسمتها على أزواج النبـيّ ﷺ، ورضي عنهنَّ من زوجات صابرات طاهرات أمهات للمؤمنين في كل مكان وزمان، إلى أن يقوم الناس لربّ الناس يوم الدين.

ووردتْ لي قافلة من تجارة الشام، فحملتها إلى رسول الله ﷺ، فأنفقها على المسلمين، ودعا لي بالجنّة. فنزل جبريل وقال:

«إنّ الله يقرئك السلام، ويقول: أقرىء عبد الرحمن السلام، وبشّره بالجنة».

ودعونا من هذا الحديث، ما دمتم قد سمعتم شيخكم يخطبكم حوله، جزاه الله كلَّ خير.

فقلت:

ــ نريد أن نسمع شيئاً عن استخلاف ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فاعتدل عبد الرحمن في جلسته وقال:

ــ سأتحدث لكم عن هذا الموضوع في اختصار شديد، لأنكم تعرفون عنه الكثير والله أعلم..

ثم ما لبث الصحابـيُّ الجليل عبد الرحمن أن غرق في همٍّ

وحزنٍ ظهرا عليه، ثم مسح دمعةً فرّت من إحدى عينيه واحتبس أخرى مترقرقة في العين الأخرى وقال:

ـ بعد أن طعن أبو لؤلؤة المجوسيُّ أميرَ المؤمنين عمر وهو يصلي، وبعد أن أدرك عمر أنه الموت وأنها الشهادة إن شاء الله، لم يرد استخلاف أحد، اقتداءً برسول الله ﷺ، بل جعلها شورى في ستة أشخاص مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وهم: عثمان، وعليّ، وطلحة والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وجعل عبد الله بنَ عمرَ معهم مشيراً وليس منهم، وأجّلهم ثلاثة أيام، وأمر صهيباً أن يصلّي بالناس.

كان طلحة غائباً في أمواله بالسَّراة، فدعانا أمير المؤمنين، فدخلنا عليه، فقال:

ـ إني قد نظرتُ لكم في أمر الناس، فلم أجد عند الناس شقاقاً إلاَّ أن يكون فيكم، فإن كان شقاقٌ فهو فيكم.

ثم قال عمر:

ـ إنّ قومكم إنما يؤمِّرون أحدكم أيُّها الثلاثة ـ وكان أمير المؤمنين يعنيني بكلامه وعثمان وعلياً ـ فاتّقِ الله يا عليّ، إن وُلّيتَ شيئاً من أمور المسلمين، فلا تحملَنَّ بني هاشم على رقاب المسلمين، ثم نظر إلى عثمان وقال:

اتّق الله، إن وُلّيت شيئاً من أمور المسلمين، فلا تحملنَّ بني أميّة على رقاب المسلمين.

وإن كنتَ على شيء من أمر الناس يا عبد الرحمن، فلا تحمل ذوي قرابتك على رقاب الناس.

ثم قال أمير المؤمنين عمر:

ـ قوموا فتشاوروا، فأمِّروا أحدَكم.

فلما خرجنا قال عمر:

ـ لو ولَّوها الأجلح (أي الأصلع، ويعني عليَّ بن أبـي طالب كرّم الله وجهه) لسلك بهم الطريق.

فقال له ابن عمر:

ـ فما يمنعك، يا أمير المؤمنين، أن تقدّم عليّاً؟

قال عمر:

ـ أكره أن أحملها حيّاً وميتاً.

قال عبد الرحمن بن عوف متابعاً حديث الشورى:

ـ قمنا نتشاور، وأرسل عمر إلى أبـي طلحة الأنصاريّ قبل أن يموت بساعة فقال له:

ـ كن في خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى، فإنهم فيما أحسب سيجتمعون في بيت أحدهم، فقم على الباب بأصحابك، فلا تترك أحداً يدخل عليهم، ولا تتركهم يمضي اليوم الثالث حتى يؤمِّروا أحدهم. وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة ورَضُوا رجلاً وأبـىٰ واحد، فاشدَخْ رأسه بالسيف، وإن

اتفق أربعة، فَرَضُوا رجلاً منهم، وأبـىٰ اثنان، فاضرب رؤوسهما، فإن رضي ثلاثةٌ رجلاً منهم، وثلاثةٌ رجلاً، فحكّموا عبد الله بن عمر، فأيُّ الفريقين حكم له، فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضَوْا بحكم عبد الله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس، ولا يحضر اليوم الرابع إلاَّ وعليكم أمير منكم. . اللهم أنت خليفتي فيهم.

قال سيّدي عبد الرحمن بن عوف:

ــ فوافى أبو طلحة في أصحابه ساعة قُبر عمر، فلزم أصحاب الشورى، فلما جعلوا أمرهم إليّ، لأختار لهم، بعد أن عزلت نفسي عن هذا الأمر، لزم أبو طلحة بابـي في أصحابه، حتى بويع عثمان رضي الله عنه وعن صحابة رسول الله أجمعين.

قالت صادقة:

ــ الحمد لله الذي وفّقك لاختيار الخليفة المظلوم، ذي النورين، رضي الله عنه وأرضاه. . فهل لك من ذكرى مع عثمان يا عمّي؟

فابتسم عبد الرحمن ابتسامة لا أحلى وقال:

ــ اشتكى عثمانُ بنُ عفانَ أمير المؤمنين رُعَافاً، فدعا (حُمران) فقال له:

اكتبْ لعبد الرحمن العهد من بعدي.

فكتب له. وانطلق حمران إليّ فقال:

ــ البشرى.

قلتُ: وما ذاك؟

قال: إنّ عثمان كتب لك العهد من بعده.

فقمتُ بين القبر والمنبر ودعوت:

«اللهمّ إن كان من تولية عثمان إياي هذا الأمر، فأمتْني قبله». فلم أمكث إلاَّ ستة أشهر حتى قبضني الله إليه.

فهتفت صادقة:

ـ الله أكبر.. الله أكبر.. هذا دليل إخلاصك يا سيّدي، ودليل رضا الله عنك، فقد استجاب دعوتك، فتوفّاك شهيد الغربة سنة اثنتين وثلاثين، ودُفنت في البقيع، وصلّى عليك عثمان، ولك من العمر خمسة وسبعون عاماً حافلة بجلائل الأعمال، ووقف علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه يرثيك فقال فيما قال:

ـ اذهبْ يا ابن عوف، فقد أدركتَ صفوها، وسبقْتَ رَنْقَها (أي كدرها).

وكان سعد يصرخ (واجَبَلاه!.. واجبلاه) حزناً عليك، وتفجّعاً وألماً لفراقك، كما حزن أهل المدينة، وسائر الفقراء والضعفاء، وأمهات المؤمنين، لموتك يا أبا الضعفاء والمساكين، يا أيها الغني الشاكر، والبرُّ الصادق الرحيم.

• • •

المصادر والمراجع

١ ــ السيرة النبوية، لابن هشام.

٢ ــ تاريخ الخلفاء، للسيوطي.

٣ ــ سير أعلام النبلاء، للذهبي.

٤ ــ الرياض النضرة، للمحبّ الطبري.

٥ ــ أخبار عمر، للطنطاويين.

٦ ــ عبد الرحمن بن عوف، لأحمد عبد الجواد الدومي.

٧ ــ رجال حول الرسول، لخالد محمد خالد.

٨ ــ السيرة النبوية، لابن كثير.

٩ ــ صفة الصفوة، لابن الجوزي.

١٠ ــ حلية الأولياء، لأبي نعيم.

● ● ●